دراسة نقدية تاريخية لرواية "ججنامة" حول اغتيال محمد بن القاسم الثقفي فاتح بلاد السند

د. بكري عمر رحمه حاج الحسين *

مستخلص البحث:

أراد الباحث من خلال هذه الدراسة تسليط الضوء على أهم الشخصيات التي وضعت أُولى خطوات الدعوة الإسلامية في شبه القارة الهندية، والتي قُوبلت بغير ما قدَّمت، وذلك عندما تمَّ اغتيالها، ولم ينتهِ الأمر عند هذا الحد بل نُسجت حول حادثة اغتيال القائد محمد بن القاسم تفاصيل لا تناسب شخصيته الطموحة في نشر الإسلام. فقام الباحث بنقد أقدم الروايات التي وردت في المرجع الأساسي لتاريخ السند حول الحادثة. وتوصل الباحث إلى أن هذه الرواية رغم وجودها في المصدر الأول لتاريخ السند إلا أنها دخيلة عليه، حوت العديد من التناقضات التي تؤكد أنها أُقحمت في الكتاب بعد نقله إلى اللغة الفارسية، وأن محمداً بن القاسم مات جراء التعذيب من قِبل رجال الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك الناقم على رجال الحجاج بن يوسف وذلك لسعي الأخير لنزعه من ولاية العهد.

ABSTRACT

"Jijnama": The Assassination of Mohammed bin ElQasim El Thagafy, the Conqueror of El Sind, A critical Study

The researcher aimed at highlighting the important character of Mohammed bin el Qasim who made the initial steps in spreading Islam in the Indian Peninsula. El Qasim was ungratefully assassinated and libeled.

The researcher criticized the oldest narration about the incident that appeared in the main reference of El Sind History. The researcher found out that this narration is apocryphal and not original.

In this narration there are contradictions that asserted its insertion in the reference after its translation into Persian language.

Beside that Mohammed bin El Qasim died under the persecution of the Ummayad Caliph Sulieman bin Abedul Malik who cherished venom against the men of El Hajaj bin Usuf as the latter plotted to dethrone him.

* أستاذ مساعد - كلية الآداب – جامعة شندي

الحمد لله القائل في كتابه الكريم:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لله ِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا الله َ إِنَّ الله َ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (1)

والصلاة والسلام على رسوله الأمين الذي حذّر أمته من الظلم وأَمَرَها بالعدل في قوله: (ثلاث مهلكاتشحٌ مطاع، وهوى مُتَّبع، وإعجاب المرء بنفسه. وثلاث منجيات:خشية الله في السِّر والعلانية، والقصد في الفقر والغنى، والعدل في الغضب والرضى) (2) وبعد.

فمن خلال دراستي لانتشار الإسلام في شبه القارة الهندية اطلعت على مراجع عديدة، تطرَّقت لأسباب اغتيال فاتح السند محمد بن القاسم الثقفي فوجدتها مُتضاربة، كما أن ما تحويه من تفاصيل وعِلَل لأسباب قَتْلِه لا تتناسب وشخصيته التي قامت بهذا الدور العظيم في إيصال رسالة الإسلام إلى أرضٍ عجز الكثيرون عن الوصول إليها قبله.

ولكن أهم ما لفت نظري هو تعتيم تاريخ السندفإنه من المُدهش حقاً أن مصادرنا العربية المعتمدة لم تكتب شيئاً يُذكر عن تاريخ السند وفتحها إلا النذر اليسير.

فمثلاً نجد الطبري الذي أطنب في ذكر أخبار قتيبة بن مسلم الباهلي وفتحْ بلاد ما وراء النهر، لم يقدّم إلا أسطُراً معدودة عن ابن القاسم وفتح السند، مع أن ابن القاسم وقتيبه بن مسلم كانا قائدين في جبهة واحدة، هي الجبهة الشرقية ويتبعان لأمير واحد هو الحجاج بن يوسف. وأما ابن الأثير فقد اكتفي في كتابه (الكامل) بما أورده الطبري في تاريخه. بينما قدَّم اليعقوبي كلمات متناثرة عن ابن القاسم. والمسعودي الذي أسهب في ذكر أخطاء الحجاج لم يذكر شيئاً عن إنجازه المتمثل في فتح السندوقدَّم ابن خلدون خبراً مختصراً عن السند، أما ابن كثير فقد أورد نتفاً ثم علَّق علي عصر الوليد بن عبد الملك بقوله:(حتى عادَ الجهاد شبيهاً بأيام عمر بن الخطاب)(3) . والأعجب من ذلك أن كتاب (الفتوح) لابن أعثم وهو المتخصص في هذا الجانب، لم أعثر فيه علي معلومة واحدة عن فتح السند. وهنا يبرز سؤال: ما سبب هذا التعتيم علي تاريخ السند؟

هل هذا مردّه كُرْه الحجاج؟ وإذا كان الأمر هكذا، فلماذا أُعطيت فتوحات قتيبة بن مسلم جُلَّ حقها في التوثيق وهو قائد تحت إمرة الحجاج مثل محمد بن القاسم تماماً؟

وفي تقديري أن الأمر يرجع إلى عاملين: أولهما كُره آل ثقيف قاطبة بما فيهم محمد بن القاسم. وثانيهما ما ذكره المقدسي في حديثه عن السند من أنه أوشك علي إلغاء رحلته نظراً لصعوبة المواصلات والمخاطر. وهذا يبرره ضعف همم الكُتَّاب آنذاك فقد انقضي عهد أولئك الذين يسافرون الأشهر ويقطعون المسافات طلباً للعلم أو توثيقاً لأخبار المسلمين، وبقيت قِلة رضيت بالجلوس في

عاصمة الخلافة، تكتب عن الخليفة وما يدور في قصره من أحداث تاركةً الأدغال والسفر الشاق.

ويُعدُّ كتاب فتح السند " ججنامة" لمؤلفه علي بن حامد الكوفي من أهم المصادر الأصلية في فتح السند، وقد أورد حادثة اغتيال محمد بن القاسم في ثنايا بحثه، وبما أن هذا الكتاب يُعدُّ من المصادر الأولية التي يعتمد عليها الباحثون في تاريخ وحضارة السند، رأيت أنه واجب عليّ إماطة اللثام عن خبايا تلك الحادثة، وفك طلاسمها من أجل الوصول إلى السبب الحقيقي الذي أدَّى لاغتيال هذا الفاتح العظيم.

وقد استهللت تناولي لتلك الرواية بتعريف للكتاب ومؤلفه، مع ذكر بعض الملاحظات والشواهد التي تشير إلى إقحام بعض المعلومات في الكتاب. ثم أوردت نُبذة مختصرة عن بلاد السند وأصل تسميتها وموقعها وحدوها، مُتتبعاً المحاولات الأولى لفتحها، حتى خلصت إلى جهود محمد بن القاسم ونجاحه في ضم المنطقة للدولة الإسلام.

ومن أجل الوصول لحقيقة الاغتيال وملابساته أوردت عدة محاور، بدأتها بنبذة عن قبيلة ثقيف، ثم تحدثت عن الأقوال المتضاربة حول تاريخ ابن القاسم، وخلصت إلى سيرة الحجاج بن يوسف وعلاقته بخلفاء بني أمية، ومن ثمَّ دلفت إلى حادثة الاغتيال متتبعاً الروايات التي وردت في خبر موته، وأخيراً عرضت نص رواية ججنامة حول اغتيال محمد بن القاسم، واتبعته بوجهة نظري حول الرواية.

وأنا على يقين أن هذا العمل لا يساوي شيئاً أمام ما قام به هذا الفاتح العظيم، ولكنه جهد المُقل، وحسبي أنني أدافع عن رجلٍ وضع اللبنة الأولى لأرضٍ يفصلها عن مهبط الوحي جبال ووهاد وصحارى، تحفها المخاطر من كل جهة، ولكنها أصبحت بفضل الله ثم بجهود هذا الفاتح قلعة الإسلام في قلب آسيا، ولم تتنكر تلك البقعة لهذا الدين بل أصبح الإسلام جزء من اسمها، وهي جمهورية باكستان الإسلامية. فإن أصبت فبتوفيق من الله وهو غاية ما أصبو إليه وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان، والله المستعان وعليه التكلان.

(1) كتاب فتح السند (ججنامة):

نقله إلى العربية وصنَّفه بالفارسية علي بن حامد بن أبى بكر الكوفي، المتوفى سنة 613هـ/ 1215م. والكتاب قد عثر على أصله الكوفي لدى عائلة يرجع نسبها إلى بنى ثقيف فقام بترجمته إلى اللغة الفارسية ولكنه لم يذكر العنوان الدقيق للنص العربي الأصلي ولا اسم مؤلفه فأحياناً يشير إليه باسم (ججنامة) (4) وفي أماكن أخري يسميه (تاريخ الهند وفتح السند) (5) وعند مطالعتي لنصوص الكتاب وجدت أن كثيراً من مقاطعه تتطابق مع ما جاء في فتوح البلدان والذي اعتمد في رواياته على أبي الحسن علي بن محمد المدائنى (

135 - 225 هـ/752 – 839م) وهذا يدلُّ على أن الكتاب إما أنه من مؤلفات المدائني أو أن كاتبه اعتمد على روايات المدائني اعتماداً أساسياً .

والكتاب يضمُّ بين دفتيه معلومات أساسية وهو يُعدُّ أول عمل تاريخي حقيقي حول الأحداث التي جرت في السند، ولكنه بالرغم من ذلك فقد احتوى علي نصوص اختلقها الكوفي لأنه أخذ على عاتقه صياغة النص الفارسي بأسلوب أدبي حتى تهتم الأجيال بقراءته وكانت حجته في ذلك: (على الرغم من أن العمل الأصلي باللُّغة العربية كان جديراً بالثناء من ناحية الأسلوب والإنشاء وحاز علي ثقة وتقدير السلطات العربية ولكنه كان خالياً من الزخرفة التي تتميَّز بها صياغة اللُّغة الفارسية، وبالتالي لم يحقق شُهرة واسعة بين الشعوب غير العربية) (6).

ومن أهم الملاحظات علي الكتاب، الأسلوب الذي جاءت به الرسائل المتبادلة بين الحجاج وابن القاسم، والذي يخالف أسلوب صدر الإسلام إضافة إلى ورود عبارات ليست فيها بلاغة الحجاج المعهودة وتختلف تماماً عن رسائله إلى قتيبة، فمثلاً من رسائله إلى قتيبة بن مسلم: (كس بكس وانسف نسف ورد وردان) (7)، هذا الأسلوب الرائع لا تجده في كتاب فتح السند فمثلاً :(من الحجاج بن يوسف إلى الأمير المبجل المحترم عماد الدين محمد بن القاسم ...) (8)، هذه من أساليب أواخر العصر العباسي . ولكن بالرغم من ذلك فالكتاب مُهم جداً، فقد انفرد بذكر أحوال السند قبل الإسلام وتحدَّث بإطناب عن استعدادات الجيش والمعارك التي خاضها محمد بن القاسم.

(2)موقع بلاد الِسنْد وحدودها:

تحتل بلاد الِسنْد الجزء الشمالي الغربي لشبه القارة الهِنْدية، أما منشأ تسميتها بهذا الاسم فقد اختلف المؤرخون والجغرافيون حوله وذكروا تعليلات مُتباينة لأصله فيذكر لامبريك (LAMBRICK)أن الاسم القديم لبلاد الِسنْد هو "ِهنْدهو" (9) الذي أطلقه أهل تلك البلاد في بداية الأمر على نهر الِسنْد، وقد أُطلق الاسم "ِسنْدة " على المنطقة التي يجري فيها الجزء الأسفل لنهر الِسنْد وذلك لما غزا الآريون (10) تلك البلاد (11) ،بينما عرفّها الإيرانيون باسم "ِهنْد " ثم أبدل اليونانيون الهاء همزة فأصبحت "إند "، وسمّاها الرومان "أندريا "، والملاحظ هنا أن الاسم يتم تغييره وفق الأوضاع السياسية، فكلما جاء غُزاةٌ أعطوا البلاد اسماً يناسب لسانهم، أما سكان الِسنْد أنفسهم فقد كانوا يسمون المناطق المحيطة بالنهر"ِهنْد "وظلّ هذا الاسم هو المتعارف عليه بينهم حتى مجئ الفتح الإسلامي (12).

ومثلما جاء الخلاف حول كلمة "ِهنْد " فقد كانت الحدود هي الأخرى محل نزاع ذكر فيه الجغرافيون آراء مُتباينة أهم ما ذُكر فيها أنه يحدها من الغرب كرمان ومفازة سجستان ومن الشرق

بحر العرب، ومن الشمال الهِنْد ومن الجنوب مفازة (13)بين كرمان والبحر وهي اليوم تشمل جزءاً من جمهورية باكستان الإسلامية.

(3)الفتح الإسلامي لبلاد السِنْد ودور محمد بن القاسم:

في عهد الفاروق عمرقام والي البحرين (14) وعُمان عثمان بن أبي العاص الثقفيبأُولى المحاولات لفتح السِنْد، تمثّلت في إرساله ثلاث حملات في سنة 15هـ/636م (15)، فأحرزت بعض الانتصارات إلا أن الفاروق لم يرض عن هذا التصرف، وذلك لقيام عثمان الثقفي بالحملة دون علوبعد انتصارات المسلمين في نِ ◌َ هَاوَنْد قرّر الفاروقفتح بلاد السنْد وذلك لأن الطريق إليها أصبحت سابلة، لا سيما وأنها صارت ملجأً لفلول الفرس المنهزمة، فعقد لواء مُكْرَان للحكم بن عمرو الغفاري (16) سنة 18 هـ/639م، الذي سيطر على المنطقة وبقي فيها إلى أن استشهد الفاروق سنة 23هـ/643م.

ولما بُويع عثمان بن عفان بالخلافة سنة 24هـ/644م انتفض أهل مُكْرَان فبعث إليهم عبيد الله بن معمر التيمي، فأوقع بهم وطاردهم حتى بلغ نهر السنْد، وحكم مُكْرَان حتى سنة 29هـ/649م ولما استشهد عثمان كان على السند سعيد بن كندير القشيري (18).

بعد مقتل عثمان تولى الخلافة علي بن أبي طالب وفي سنة 39هـ/659م أرسل تاغرين بن دغر فتوغّل حتى وصل جبل قيقان (19) وهزم جموع المقاتلين وغنم عتادهم ولما غفل الجيش عائداً (20)جمع له أهل القِيقَان وقتلوه مع جماعة من رجاله، وعادت البقية إلى مُكْرَان، وفيها علموا بمقتل الخليفة وتولي معاوية بن أبي سفيان خلافة المسلمين (21).

أرسل معاوية إلى أهل القيقان راشد بن عمرو الجديدي فردهم إلى الإسلام، وسيطر على الأوضاع إلى أن عُزل سنة 43هـ/663م، فثار أهل القِيقَان ثانية فبعث إليهم عبد الله بن سوار العبدي الذي أصاب منهم مقتلة عظيمة و عاد إلى معاوية محملاً بالغنائم، ثم ثاروا مرة أخرى فجاءهم المهلب بن أبي صفرة سنة 44هـ/664م فردَّهم ولكنهم انتفضوا بعد مغادرته البلاد مباشرة، فأمر الخليفة معاوية قائده عبد الله بن سوار بالعودة مرة ثانية ولكنه استشهد ومعظم جيشه (22).

وفي سنة 45هـ/665م (23) أرسل والي العراق زياد بن أبي سفيان إلي مُكْرَان سنان بن سلمة الهذلي فأعاد فتحها وأقام بها مُدة أفلح في ضبطها وعمل على إصلاحها، ثم أعدّ حملة من أجل الانتقام لمقتل عبد الله بن سوار، إلا أن زياداً لم يعجبه هذا البطء في الغزو فعزله وأعاد راشد بن عمرو الجديدي سنة 48هـ/668م، فبقي في السِنْد عاماً كاملاً حصل فيه على جميع الأموال والغنائم التي نهبها العُصاة، وأخذ منهم خراج السنة

الماضية والسنة الحاضرة، ولما غفل عائداً إلى مُكْـرَان قابلتـه جموع الميد (24) ودارت معركة حامية خسرها المسلمون واستشهد قائدهم راشد بن عمرو الجديدي وكان ذلك سنة 50هـ/670م. (25)

أعاد زياد إلى المنطقة سنان بن سلمة وقد نجح في إعادة البلاد وبقي في مُكْرَان عامين إلى أنْ عُزل ثم تولى عبيد الله بن زياد أمر العراق فبعث المنذر بن الجارود العبدي سنة 62هـ/681م إلى أهل القِيقَان فأخضعها وأقام فيها إلى أن توفي سنة 62هـ/681م فوليها حري بن حري الباهلي الذي أعاد الأمن للبلاد وبقي في مُكْرَان إلى أن تغلّب عليها العلافيون (26) سنة 64هـ/683م (27).

وفي خلافة عبد الملك بن مروان تولى أمر العراق الحجاج بن يوسف، فابتدر ولايته بإرسال سعيد بن أسلم الكلابي (28)إلى مُكْرَان فقضى على فتنة العلافيين ولكنهم غدروا به وقتلوه وحكموا مُكْرَان مرة أخرى، فبعث إليهم مجاعة بن سعر التميمي (29) سنة79هـ/698م وأمره بالمسير في طلب العلافيين فوصل مُكْرَان وتغلّب عليها بعد أن غادرها العلافيون هاربين إلى ملك الِسنْد داهر، فبقي فيها عاماً نظّم شؤونها الإدارية والمالية، وبعد وفاته تولى أمر المنطقة محمد بن هارون بن ذراع النمري (30)الذي يُعَدُّ من أفضل الوُلاة الذين مرُّوا على الِسنْد، فقد حكمها خمس سنوات برزت فيها حنكته السياسية وقوته النافذة في القضاء على المتمردين.

وفي عهده وقعت حادثة غيّرت مجرى العلاقات بين المسلمين والِسنْد، وذلك عندما أهدى ملك جزيرة الياقوت (31) إلى دولة الخلافة سفينة مُحملة بالتُّحف والهدايا والجواهر الثمينة والغلمان، بالإضافة إلى مجموعة من النساء المسلمات،فعرض للسفينة قوم من ميد الدَيْبُل في بوارج فأخذوا السفينة بمنْ فيها، فكتب الحجاج إلى داهر يسأله إطلاق سراح النسوة، ولكن الأخير لم يهتم بالأمر وردّ بقوله:" إنما أخذهن لصوص لا أقدر عليهم" فأرسل الحجاج عبيد الله بن نبهان السلمي ولكنه هُزم ومات شهيداً مع عدد كبير من جنده (32) .

لم يرّكَنْ الحجاج للهزيمة التي حلّت بجيشه فجهّز حملة أُخرى بقيادة بديل بن طهفة البجلي (33)فلقيت مصير سابقاتها فألحّ الحجاج على الخليفة الوليد بن عبد الملك ليأذن له بتسيير الجند لفتح السند فأذِن له، فاختار محمد بن القاسم الثقفي ليقوم بهذه المهمة الصعبة فجاء الفتح على يديه (34).

وضع الحجاج خطة مُحكمة لتلافي أخطاء الماضي في عام 92هـ/710م، ووقف على تجهيز جيش ابن القاسم بنفسه، وأمدَّه بستة آلاف من جند الشام وغيرهم، وجهّزه بكل ما احتاج إليه حتى الخيوط والإبر، وأمره أن يقيم بشِيرَاز (35) حتى يكتمل وصول العتاد الحربي إلى الديبل.

نزل ابن القاسم في سواد (36) الدَيْبُل،

وحفر الخنادق، ونصب المنجنيقات، وكان في وسط الدَيْبُل معبد كبير للأصنام، وما أن علم ابن القاسم بتعلق أهل الدَيْبُل بهذا الصنم حتى أمر بهدمه، ودخل المدينة واستباحها ثلاثة أيام، ثم توجه إلى السجن الذي ضمّ الأسْرى المسلمين فحررهم ووضع بدلاً عنهم مجموعة من قراصنة الدَيْبُل ،وأنزل فيها أربعة آلاف من المسلمين وبنى فيها مسجداً، ثم توجه إلى (نيرون) (37)، ففتح له حاكم المدينة أبوابها وأخذ يبيع ويشتري البضائع مع جيش المسلمين، فدخلها ابن القاسم، وهدم معبد الأوثان، وبنى مكانه مسجداً وجعل له إماماً .

ثم قرر ابن القاسم عبور نهر السند للقاء داهر ملك الِسنْد، فأرسل إليه رسولين يدعوانه للطاعة فرفض، وعندئذ تخيّر ابن القاسم أفضل معابر النهر، وهيأ السفن لذلك، وأثناء المراسلات بينه وبين داهر من طرف ومع الحجاج من جهة أخرى والاستعدادات التي استمرت خمسين يوماً نفدت أطْعِمَة المسلمين، وقلّت الأعلاف، ونَفَقَ عدد من الخيل بعد إصابتها بالجذام، فاضطر الجند إلى أكل لحوم الخيل المريضة (38)، فلما وصلت تلك الأخبار إلى داهر طار قلبه فرحاً فأرسل مبعوثه إلى ابن القاسم ساخراً، ودعاه إلى الرجوع إلى بلاده سالماً، ولكن ابن القاسم لم تفت تلك الحرب النفسية في عضده،فكتب إلى الحجاج يخبره بما آل إليه وضع المسلمين هنالك، فأرسل إليه الحجاج ألفي حصان.

فأمر ابن القاسم بإحضار السفن وربط بعضها ببعض ليصنع منها جسراً للعبور، وفي الجهة الأخرى أعدّ داهر خمسة آلاف من خواصه المدربين على فنون القتال، وستين سلسلة من الفيلة، وعشرين ألف مقاتل من المشاة مدججين بالسلاح. فتقدمت جماعة من جند داهر ليمنعوا ابن القاسم من ربط أجزاء النهر، ولما وصلت طلائع السفن على مقربة من الساحل الشرقي بدأ المسلمون برمي السهام والرماح بكثافة، مما أدّى إلى تراجع قوات داهر الأمر الذي سهّل عبور الجيش المسلم، والتحم الجمعان في معركة حامية دارت رحاها من الصباح وحتى المساء، وقد عملت الفيلة في المسلمين الأفاعيل.وظلّ الحال هكذا إلى أن قذف أحد الرماة سهماً مشتعلاً أصاب قلب الهودج الذي يجلس بداخله داهر، فعَادَ الفيل إلى الوراء وقد اشتعل بالنيران حتى سقط في النهر، فعاجله المسلمون بوابل من السهام حتى قُتل (39).

وتتبَّع المسلمون فلول جيش داهر المقتول حتى حصن (الرور) (40) ففتحوه، ثم توجه ابن القاسم إلى برهمناباد (41) ففتحها ووضع أعيان البراهمة في المناصب التي تناسبهم وخصَّص لهم جزءاً من المال، وكان يجلسهم في المحافل في الأماكن التي كانت تُخصص لأمراء الهِنْد وملوكها، وأعطى لعوام الناس الأمان وحُرية ممارسة طقوسهم الدينية .

ثم توجه ابن القاسم إلى العاصمة (الرور)

فدارت فيها المعارك أياماً متتالية ولما تأكد أهل المدينة من مقتل داهر، ملّوا الصدام وخاصة عندما وصلتهم الأخبار عن ابن القاسم وجيشه وما يتمتعون به من خلال حميدة وسيرة حسنة، وفوق ذلك هروب قائدهم، فقرروا التسليم وفتحوا أبواب المدينة أمام جيوش المسلمين. ثم واصل ابن القاسم جهاده ففتح العديد من المدن بعضها صلحاً وبعضها عنوة، وفي الوقت الذي تفرَّغ فيه ابن القاسم لإكمال ما تبقَّى من أراض سندية، جاءه نبأ وفاة الحجاج بن يوسف سنة95هـ/713م (42) وقد تأثر ابن القاسم لهذا النبأ وأخذ الحزن منه مأخذاً عظيماً، فبعد أن كان ينوي التوجه إلى كشمير التي احتضنت أُمراء الِسنْد الهاربين، عاد أدراجه إلى العاصمة الرور لمتابعة ما يستجد من أحداث في دار الخلافة، ثم أرسل أحد قواده ففتح مدينة البيلمان (43)، وأرسل قوة أخرى إلى مدينة سرست (44) التي يسكنها الميد المعروفين بالنهب فرضخوا للمسلمين وتعهدوا لهم بسلامة الطُّرق برّية كانت أم بحرية (45)، بعدها اتجه ابن القاسم إلى مدينة الكيرج (46) وكان في كل مدينة يفتحها يبني المساجد، حتى وصلت فتوحاته إلى حدود كشمير، واستطاع أن يخضع الِسنْد لحكم الخلافة الإسلامية في مُدة لم تتجاوز ثلاث سنوات، وأصاب محمد بن القاسم مالاً كثيراً وعظمت فتوحاته.

(4) محمد بن القاسم الثقفي في المراجع التاريخية:

الذي يحفظه التاريخ للحجاج أنه كان خبيراً بمعادن الرجال، مُتميزاً بنظرته الثاقبة في اختيار أصحاب المهمات، فلم تقع عيناه علي قائد إلا وكان النصر معقوداً علي لوائه ومن هؤلاء القادة ، فاتح السند محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب الثقفي (47) .كان أبوه القاسم بن محمد والياً للحجاج علي البصرة (48).

عاش ابن القاسم في كنف والده وكان ــ حينها ــ أكثر بني عقيل أمراء وقادة ، فنشأ الشاب في هذا الوسط فتفتقت فتوته عن شخصيه عسكرية فذّة، أخرجت للأُمة قائداً في مقتبل العمر لا يعرف اليأس إلي قلبه سبيلاً، ولا تعجزه الحيل والمكائد في مباغتة العدو رغم حداثة سنه، وفي فترة وجيزة أضاف للإسلام أرضاً عجز الكثيرون عن فتحها، كان همّه الأول أن يدخل الناس في دين الإسلام .

وعلي الرغم من هذا الدور البارز لابن القاسم إلا أن سيرته أصابتها غشاوة حجبتها عن الظهور، وحتى أولئك الذين سوَّدُوا صفحات التاريخ بذكر مآثر الرجال، ضنَّت أقلامهم علي ابن القاسم إلا النذر اليسير الذي لا يتناسب ومكانة الرجل، حتى أصبح مجهولاً تضاربت كتب التاريخ في ما نقلته عنه من حقائق، سنحاول إيرادها والتعليق عليها.

ومن ذلك ما ذكره بعض المؤرخين من أن محمد بن القاسم، ابن عم الحجاج (49) مع أنهما يلتقيان عند الحكم بن أبي عقيل وهذا يعني أن الحجاج ابن عم والده.أما ما ذكره الحجاج في رسائله إلي ابن القاسم وتصديرها بقوله:(يا ابن عمي) (50) ، فإن الذي يستقرئ أنساب العرب يجد مثلها كثير ففي السيرة النبوية نجد أنه عندما قدم المدينة مع أمه نزل عند أخواله بني النجار (51)، وهم أخوال جده المطلب.وعندما استشهد جعفر بن أبي طالب في مؤتة قال :(لا تبكوا علي أخي بعد اليوم) (52).

ومنها أيضا ما ذكره بعض المؤرخين أن محمد بن القاسم عند ولايته علي السند كان عمره سبع عشرة سنة (53) ويستدلون علي ذلك بقول الشاعر يزيد الأعجم:

ساسَ الجيوش لسبع عشرة حجة
ولداته (54)مَنْ ذاك في أشغال
فَغَدَتْ بهم أهواؤهم وسمتْ به
هِمَم الملوك وسورة الابطال (55)

وهذه الحقيقة ليس لها سند تاريخي فلو سلّمنا بصحتها وأن عمره سبع عشرة سنة عند ولايته علي السند سنة 89 هـ/707م فكم يكون عمره سنة 83 هـ/702م عندما ولاّه الحجاج علي فارس وأمره بقتل الأكراد (56)؟ أيكون صبياً لم يتجاوز الثانية عشر من عمره ؟ وكيف إذا أخذنا بالرأي القائل أنه تولى أمارة السند سنة 92هـ/710م ؟ وعندها سيكون عمره تسع سنوات عند ولايته علي فارس! والذي نميل إليه أن مولده كان سنة 72هـ/691م. (57)

أما ما نقلته بعض المصادر من أن ابن القاسم صهر الحجاج (58) فهذا لا أساس له من الصحة، حيث أن للحجاج أُختاً واحدة اسمها زينب تزوجت من ابن عمها الحكم. ولم يذكر النسابون للحجاج سوى أربعة أولاد، أما محمد بن القاسم فقد تزوّج من بني سعد بن تميم وأنجب ولدين هما عمرو الذي بني مدينة المنصورة (59)، والقاسم الذي ولي البصرة.

ولا شك أن الحجاج كان مُوفقاً عندما عهد بحملة السند إلي محمد بن القاسم، الذي نجح فيما أخفق فيه غيره. بل إنه فاق الحجاج في مزايا عسكرية وقيادية عديدة، فهو لم يبن للأمويين كما بنى الحجاج، ولم يكن يعمل لشخص الخليفة الوليد كما كان يعمل الحجاج، لقد بنى لله وعمل لدينه فعقد الله النصر علي مفرقه وهو في ريعان شبابه.كما أنه ومع حداثة سنّه مَلَكَ زمام أصحابه، فلم نسمع أحداً منهم حدثته نفسه بخلاف معه أو عصيان له، ثم إنه بهذه الخلال نفسها وبرجاحة عقله وسعة حلمه اجتذب قلوب أهل السند أنفسهم، فلم يترددوا في طاعته والانضواء تحت لوائه، بل وحملوا السيف ضد بني جلدتهم وقاتلوهم مع ابن القاسم.

ولكنه رغم ذلك لقي من الجزاء مالا يتكافأ مع حُسن الصنيع ونال من الجحود ما لا يقاس به سوء العرفان. فقد مات الحجاج بن يوسف ولحق به خليفته الوليد ليبقي ابن القاسم فيؤخذ بجريرة غيره

وذنب من سبقه، فيُعزل ثم يُسجن ثم يكون في عداد الموتى وتنسج الأقاويل حول موته وأسبابه، وينبش قبره بأقلام المؤرخين من عرب وفرس ومستشرقين، فالكل يكتب محاولاً تجريمه حتى يصوِّر للقارئ أن سليمان بن عبد الملك كان سيفاً مُسلطاً علي العُصاة والمجرمين، فتضاربت الآراء حول نهاية البطل وأسبابها حتى صار الوصول إلى حقيقة ذلك أمراً صعب المنال.ولكننا سنسلك طريقاً وإن كان شاقّاً إلا أنه أقربها للوصول إلى المرام. ولعل السيرة السياسية للحجاج وقبيلته وعلاقته بمنْ عاصره من الخلفاء وما أفرزته تلك العلاقة من نتائج، كان لها دورها فيما أصاب ابن القاسم.

(5) قبيلة ثقيف:

ثقيف من القبائل العربية الكبرى التي سكنت الطائف (60) وكانت لهم فيها السيادة والجاه من قديم، وفي بعض رجالاتهم في الجاهلية وجاهة في النسب وعراقة في الحسب، منهم عروة بن مسعود الثقفي الذي تمنّت قريش لو نزل عليه القران (61)، كما قال تعالي وقالوا لَولا نُزّلَ هَذا القُرآنُ عَلَي رَجلٍ مِنْ القَريتينِ عَظيم) (62) ومنهم الصحابي الجليل عثمان بن أبي العاص الثقفي والحجاج بن يوسف ومحمد بن القاسم، وكثير من الصحابة وأبطال الفتوح الإسلامية خاصة في بلاد العراق والهند والسند وشمال أفريقيا والأندلس (63).

ومعظم المراجع تشير إلى أن نسب هذه القبيلة، يرجع إلى مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وهنالك من يلحقها بقيس عيلان ومنهم من ينسبها إلى أياد وكلا النسبين يلتقيان عند جدٍ واحد هو معد بن عدنان (64).وبعضهم أخرجها من العرب العاربة والمستعربة تماماً وألحقها بثمود (65)، وهو مستبعد إذ إنه لا دليل علي وجود عَقب لثمود بل العكس ما ذكره القرآن فَمَا أَبْقَي) (66). وقال بعضهم إن أبا رغال ـ هو أبو ثقيف ـ كان دليل الأحباش على الكعبة عندما أراد أبرهة هدمها (67).وهذا يكذّبه التاريخ، إذ أن أبرهة غزا الكعبة سنة 571م وفي تلك الفترة كانت ثقيف أقوي القبائل العربية وأعتاها وأغناها وكانت المنافس التقليدي لقريش ؟ فكيف يكون أبو رغال جدها ؟.

يقول جواد علي:في رأيي أن معظم هذه الروايات التي تنسب ثقيفاً إلي ثمود أو إلي أبي رغال إنما وُضعت في الإسلام بُغضاً في الحجاج الذي عُرف بقسوته (68)، ويؤكد ذلك ياقوت الحموي بقوله:فقد كان الثقفيون أغبط العرب عيشاً نتيجة خصوبة أرضهم ورخاء عيشهم مما جعلهم مطمعاً للقبائل ومهوى أفئدة الغزاة (69).

(6) الحجاج بن يوسف الثقفي وعلاقته بالخلفاء الذين عاصرهم:

هو الحجاج بن يوسف بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب بن مالك بن كعب بن

عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف، أُمه الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي (70)، ووالده يوسف بن أبي عقيل عدَّه بعضهم من الحمقي (71). وُلد بالطائف سنة 41هـ ولُقِّبَ بالحجاج وكُني بأبي محمد (72) وقد ذُكرت حول مولده أعاجيب وغرائب ضربنا عنها صفحاً .

كان هو وأبوه يُعلمان الغلمان بالطائف، ثم قَدِمَ دمشق فولاه عبد الملك إحدىَ فرق الجيش، فعندما لمس منه الجديّة والحزم أرسله سنة 73هـ/ 692م إلي الحجاز فقتل عبد الله بن الزبير وأعاد مكة لبني أميه، فاستنابه الخليفة على مكة والمدينة والطائف، ثم نقله والياً على العراق سنة 75هـ/ 694م (73)، فأعمل في أهلها السيف حتى ردَّهُم إلي الجادة وأعاد للدولة هيبتها فحظي بمكانة رفيعة عند خلفائها الذين عاصرهم، ولكنه لم يتحقق له ذلك إلا بعد أن سفك دماءً لا تحصى، فلم يسلم من سيفه حتى الصالحين. وذكر بعضهم أن من قتلهم الحجاج تجاوز المائة ألف وعشرون ألفاً، ومات في سجنه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة (74). قال عنه الذهبي ظلوماً جباراً ناصبياً خبيثاً سفاكاً للدماء وكان ذا شجاعة وإقدام ومكر ودهاء، وفصاحة وبلاغة، له حسنات مغمورة في بحر ذنوبه (75)كان الحجاج مُخلصاً لبني أُميه، بذل جهوداً في توطيد حكمهم فأطلقوا يده في الجبهة الشرقية فحقّق للدولة انتصارات باهرة زادت من رقعتها، وظلَّ حاكماً علي العراق مدة عشرين عاماً، عمل فيها لخليفتين هما:عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك. وتوفي في 25 رمضان سنة 95هـ/713م ودُفن في مدينته واسط (76).

(أ) علاقته بعبد الملك بن مروان :كان الحجاج علي صلة قوية بعبد الملك بن مروان وكان من المقربين عنده وأهل مشورته، فهو الذي اختاره حاكماً علي الحجاز ثم نقله للعراق وعند وفاته أوصى ابنه الوليد بالحجاج فقال له:(الحجاج جلدة ما بين عيني) (77) كما أنه سمي أحد أبنائه بالحجاج.

(ب) علاقته بالوليد بن عبد الملك أقرَّه الوليد علي ولاية العراق، ومما أُثر عن الوليد قولته في الحجاج:إن أبي كان يقول:الحجاج جلدة ما بين عيني، وأنا أقول:إنه جلدة وجهي كله (78). وتعدَّت العلاقة بينهما طور العمل إلى الرباط العائلي، وذلك عندما تزوَّج ابن الحجاج من ابنة الوليد (79).

العداء بين سليمان بن عبد الملك والحجاج :

مات الحجاج سنة 95هـ/713م وتبعه الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة 96هـ/714م. وجاء إلى الحكم سليمان بن عبد الملك صاحب العداء المحكم للحجاج.فما سرّ هذه الكراهية والعداوة من الخليفة الجديد للحجاج الذي أفضي إلى ما قَدَّم ؟ والجواب عن هذا السؤال هو مفتاح القضية التي نحن بصددها، والتي ذُكِرَ بسببها بطل السند. وقد أرجع المؤرخون هذا العداء لأسباب منها :

(أ)سعيْ الحجاج لأن يؤول أمر الخلافة بعد الوليد لابنه عبد العزيز بدلاً عن أخيه سليمان (80).

(ب) كتاب الحجاج إلي الوليد الذي يطالبه فيه بإرجاع آل المهلب إلي السجن بعد التجائهم إلي سليمان (81).

وقد انحلت مشكلة ولاية العهد بوفاة عبد العزيز بن الوليد، وذهب الوليد إلي جوار ربه وانتهي ما بينه وبين الناس في الدنيا من صراع، ليبدأ ما بين أخيه سليمان وبين الناس من أحقاد النفوس.وكان الحجاج يعلم يقنياً أن سليمان يتوق لتسلُّم السُّلطة لينتقم منه، ولذلك كان كثيراً ما تمنى أن يموت قبل الوليد فوقع ما أراد.

كان الخليفة سليمان ناقماً علي الحجاج حتى بعد وفاته، فعندما ذكر خالد بن عبد الله القسرى حاكم مكة، الحجاج في خطبة الجمعة فحمد طاعته وأثنى عليه، تلقَّي في الجمعة التالية أمراً من الخليفة بلعنه فلعنه (82). ولم يذكر المؤرخون ـ فيما أعلم ـ رجلاً ظلَّ وفياً لذكر الحجاج سوي يزيد بن أبي مسلم (83)، ذلك أنه لما سأله سليمان بن عبد الملك عن الحجاج :أهو قد استقرَّ في قعر جهنم أم ما زال يهوى ؟ فأجابه :(لا تقُلْ ذلك يا أمير المؤمنين فإن الحجاج عادَى عدوكم ووالَى وليكم وبذل مهجته لكم ، فهو يوم القيامة عن يمين أبيك وعن يسار أخيك فاجعله حيث شئت) (84).

(7) الانتقام من الحجاج :

كان سليمان حاقداً علي الذين وافقوا أخاه الوليد على خلعه من ولاية العهد وعلى رأسهم الحجاج كما أسلفنا، وبعد وفاته أخذ أقاربه بذنبه فقبض علي آل الحجاج وأسلمهم ليزيد بن المهلب (85) ليستخلص منهم الأموال ويعذبهم وكان منهم الحكم بن أيوب بن أبي عقيل الثقفي والي البصرة في عهد الحجاج. وقد اشتد آل المهلب في إيذاء أقرباء الحجاج حتى النساء لم تسلم، فقد قبض علي ابنة محمد بن يوسف أخي الحجاج بالرغم من أنها زوج يزيد بن عبد الملك أخي الخليفة (86).

(8) اغتيال محمد بن القاسم:

كما أسلفنا القول فقد استطاع الحجاج بقوة سلطانه أن يحصل علي تأييد من الولاة علي خلع سليمان بن عبدا لملك من ولاية العهد وإعطاء البيعة لعبد العزيز بن الوليد وكان ابن القاسم من بين أولئك الذين وافقوا علي خلعة (87)ـ راغباً كان أم كارهاً ـــ فتولي سليمان بن عبد الملك الخلافة وصبَّ جام غضبه علي آل الحجاج فأخذ ابن القاسم النصيب الأوفر.

فعيَّن يزيد بن أبي كبشة السكسكي والياً علي السند، فوضع ابن القاسم في الأغلال، ووكَّل به رجل شديد العداوة للحجاج، كثير الموجدة عليه، ذلك الرجل هو صالح بن عبد الرحمن (88).ولم يكن صالح هذا والياً علي العراق، ولا نائباً لواليه ولا شرطياً أو قواماً على سجون العراق حتى يتولى أمر ابن القاسم، ولكنه كان عامل الخراج علي العراق. فلماذا اختاره الخليفة ليقوم بهذه المهمة؟

وما علاقة رجل يقوم علي شئون الخراج بآخر عُزل عن قيادة جيوش السند؟

كان لصالح أخٌ اسمه آدم، جرفته موجة الخوارج، فلما وقع في يد الحجاج لقي منه المصير الذي كان ينتظر كل خارجي وهو القتل، فكان حزن صالح علي أخيه شديداً ووجده عليه عظيماً، وفي نفسه علي الحجاج ما لا تذهب بحدته الأيام، فحُمل ابن القاسم مقيداً إلي العراق فقال مُتمثلاً :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد الثغر (89)

وعندما جاءه أمر الخليفة بعزله وتسليم نفسه ليزيد بن أبي كبشه جاء طائعاً بالرغم ما كانت لديه من قوة جبَّارة وشعبية كبيرة في السند من المسلمين وغيرهم، فكان بإمكانه أن يرفض التسليم ويستقل بحكم تلك البلاد، ولكن طاعته لولي أمره تدلُّ علي صدق نواياه وبغضه لشقِّ عصا الطاعة، مع علمه بما ينتظره. وقد أشار إلى ذلك في أبياته التي يقول فيها:

ولو كنت أجمعت الفرار لوطئت
إناث أُعدت للوغى وذكور

وما دخلت خيل السكاسك (90) أرضنا
ولا كان من (عك)عليَّ أمير
ولا كنت للعبد (المزوني) (91)تابعاً
فيالَكَ دهرٌ بالكرام عثور (92)

فعذَّبه صالح بن عبد الرحمن مع رجال من آل عقيل حتى قتلهم (93) وكان من بينهم القائد محمد بن القاسم الذي مات في سجنه بواسط سنة 96هـ/714م، وبذلك انتهت حياة شاب فريد، دون أن يشفع له بلاؤه الرائع في توسيع رقعة الدولة الإسلامية ولا مهارته الفذَّة في القيادة والإدارة ولا انتصاراته الباهرة في السند، ولكن آثاره الخالدة لا تموت أبداً، وأعماله المجيدة باقية بقاء الدهر. ولما سمع أهل السند بموته بكوه بكاءً مُراً وأقاموا له تمثالا في مدينة الكيرج تخليداً لذكراه (94). بكاه أهل السند من المسلمين لأنه كان يساويهم بنفسه ولا يتميَّز عليهم بشيء، فيعدل بين الرعية ويقسم بالسوية، ولأنه نشر الإسلام في ربوع بلادهم، وكان أكثر من هداهم الله للإسلام من أهل السند علي يديه. وبكاه أهل السند من غير المسلمين لحسن معاملته لهم وتأمينهم علي أموالهم وأنفسهم وإطلاق حرية العبادة لهم (95).

وهكذا كانت حادثة تغيير ولي عهد الوليد حادثه مشئومة صبغت عهد سليمان بصبغة كريهة وجعلت الفترة الأولي من حكمه مليئة بالانتقام المر، الانتقام لشخصه من القادة البارعين الذين ملأ ذكرهم البقاع (96)فبدلاً من أن تكون السجون مرتعاً للمُجرمين وقُطّاع الطرق، فإذا بها تصبح مأوي للقادة والأشراف، وذلك عندما يتربع علي عرش الدولة من لا يقيم للاعتبارات المعنوية شأناً، ولا يسوس إلا بوحي مصلحته، فلا يحفظ لعِ ليَةِ القوم وجاهتهم ولا للأبطال مآثرهم، فينالون في السجون من التعذيب والهوان ما لا ينال غيرهم من السوقة والسفلة.

(9) ما ورد في خبر موت محمد بن القاسم الثقفي رحمه الله :

تناولت كتب التاريخ أسباب متباينة عن مقتل ابن القاسم، نعرض لها حتى تكتمل الصورة :

(أ) يذكر ابن حزم (97) أن ابن القاسم قتل نفسه عندما عذّبه يزيد المهلب، وهذا غير صحيح، إذ أن الذي عذّبه هو والي خراج العراق صالح . ثم إن رجلاً بهذا القدر من الفهم للإسلام والطاعة لولي أمره من المستبعد أن يختم أعماله الصالحة بالانتحار. ولعله اختلط الأمر علي ابن حزم فإن الذي قتل نفسه هو عمرو بن محمد بن القاسم عندما قيَّده محمد بن غزان (98)، وذلك أن عمرو بن محمد كان قد ضرب محمد ابن غزان وألزمه مالا عظيماً، فلما ولي الأخير أمر السند لمنصور بن جمهور في خلافة يزيد بن الوليد، أوثقه وأمر به حرساً يحرسونه، وقام إلي الصلاة، فتناول عمرو سيفاً من الحرس، فاتكأ عليه مسلولاً حتى خالط جوفه، فلبث ثلاثاً ثم مات (99).

(ب) قال المرزباني (100): لما يئس محمد بن القاسم من عدل الخليفة سليمان قال شعراً :

فتحت لهم مابين جرحان بالقنا

الى الصين ألقى مرة وأغير

إلى آخر ما قال، فلما سمع سليمان بما قال ابن القاسم من شعر أطلق سراحه وهذا مجانب للصواب، لأن ابن القاسم قُتل جَرّاء تعذيب صالح بن عبد الرحمن له، وفي قصة موته التي ذكرنا ما يكفي للردّ.

(ج) أما اليعقوبي فقد تطرق في معرض حديثه عن أحوال السند بعد وفاة الوليد فقال: (واضطرب أمر السند ، وأخلَّ الجند الذين كانوا مع محمد بن القاسم الثقفي بمراكزهم، فرجع أهل كل بلد إلي بلدهم، فوجه سليمان، حبيب بن المهلب إليها فدخل البلاد، وقاتل قوماً كانوا ناحية مهران، وأخذ محمد بن القاسم، فألبسه المسوح، وقيَّده وحبسه) (101)، وكيف تضطرب أحوال السند وفيها قاهر أبطالها وفاتح ربوعها ؟ ثم إن حبيباً هذا حكم السند بعد يزيد بن المهلب (102).

(د) رواية ججنامة في مقتل محمد بن القاسم:

نختم هذه الأقوال بما أورده الكوفي والمعصومي في كتابيهما فتح السند (ججنامة) وتاريخ معصومي (بالفارسية) وقد اعتمدنا علي نص ججنامة وأخذنا ما حواة تاريخ معصومي من المراجع التي ترجمت بعض نصوصه:

يروي محمد بن علي وأبو الحسن المدائني أنه لما قُتل الملك داهر، تمَّ أسر ابنتيه الآنستين وبعثهما محمد بن القاسم مع خدمه من الأحباش إلى دار الخلافة في دمشق، وأمر خليفة دمشق أن تُودعا في دار الحريم حتى يتم إسعافهما من عناء السفر وتستريحا بعض الوقت ثم تتوجها إلى مجلس الخليفة.

بعد ذلك بعدَّة أيام، ورد ذكرهما بخاطر

الخليفة المُعطّـر، فأمر بإحضارهما تلك الليلة، ثم أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك المترجم أن يسأل عن أحوالهما ويتعرَّف على أجملهما حتى يحتفظ بها ثم يستدعي الأخرى بعدئذ، فسأل المترجم عن اسميهما فقالت الكبرى الفاتنة الجميلة اسمي (سرياديو) وقالت الصغيرة اسمي (برمل ديو) فأشار الخليفة على المترجم أن تتقدم الصغرى وتسفر عن وجهها، ولما أسفرت عن وجهها، نظر الخليفة إليها فأعجب بها وافتتن وعيل صبره، وأخذت من قلبه مأخذاً عظيماً، فأمسكها بيده وسحبها إليه، لكن (سرياديو) سحبت يدها، وهبَّت واقفة قائلة: "يحيا الخليفة العظيم، لكنني لا يمكن أن أكون جارية الخليفة المناسبة، حيث أن الأمير العادل محمد بن القاسم قد أخذني لنفسه مدة ثلاثة أيام، ثم أرسلني إلى دار الخلافة، هل هذا من عادتكم؟ "إن هذه الفضائح لم تكن يوماً في قصور الملوك في أي بقعة من بقاع الأرض!

وكان الخليفة في تلك اللحظة قد غلبه العشق والهيام وفلت الزمام من يده، وقد عمّته الغيرة، فأخذ قلماً ودواةً، وكتب رسالة بخط يده قال فيها: على محمد بن القاسم مهما كان الموضع الذي قد وصل إليه،أن يضع نفسه في صندوق من الجلد ويبعث إلى دار الخلافة (103).

(10) نقد الرواية:

القصة تحمل بين سطورها ما هو كاف لبيان عوارها فضلاً عن مصادمتها لأقوي الروايات، وذلك من عدة وجوه :

أولاً : كون الرواية عن المدائني أكبر دليل علي أنها من اختراعات الكوفي، لتكون خاتمة لكتابه، إذ إنها لم ترد في أي من المصادر العربية، سيما البلاذري الذي نقل عن المدائني فكيف له أن يغفل عن هذه الحادثة المهمة ؟

ثانياً : ما تحمله الرواية من المغالطات ومنها قوله:أن الخليفة الوليد أعجبته الفتاة الصغيرة فأمسك بيدها ثم يقول:لكن (سرياديو) سحبت يدها. مع أنه ذكر في بداية القصة أن سرياديو هي الفتاة الكبرى.

ثالثاً : كذلك ما ذكره كل من الكوفي والمعصومي من أن هذه الحادثة وقعت في عهد الوليد ولم يتناول أيّ من كُتب التاريخ عن مقتل أي قائد مسلم في خلافة الوليد .

رابعاً :كتاب ججنامة مُكتظ بالروايات المتناقضة حول مصير عدد من أفراد عائلة داهر من النساء، فمثلاً يذكر أن (لادي) زوجة داهر احتفظ بها ابن القاسم كزوجة بعد أسرها في معركة راؤر (104)، وأنجب منها ولداً ثم يأتي مرة أُخري ليخبرنا أنها حاربت في برهمناباد وأُسرت بعد فتح الحصن مع اثنين من بناته (105). ثم يضيف رواية أخرى بأن أهالي مدينة الرور ــ العاصمة ــ صمَّموا علي المقاومة وأنهم ما زالوا يعتقدون برجوع داهر فأرسل إليهم ابن القاسم، (لادي) زوجة داهر ليسمعوا منها الخبر اليقين (106). وعندما ذكر خبر ابنتي داهر أردفه برواية أُخري ذكر فيها أن

ابنة داهر (جنكي) أخبرت الخليفة بحقيقة الأمر وأن ما قلنه بأن ابن القاسم أخذهن لنفسه ثلاثة أيام انتقاماً من محمد بن القاسم فأمر الخليفة بقتل الفتاتين، وفي موضع آخر ذكر أن ابنى داهر هما:(سرياديو) و(برمل ديو)، أما (جنكي) فهي أخت (دروهر) حاكم الكيرج التي غدرت بجيسية بن داهر (107).إذن الأمور حول مصير نساء داهر وبناته لم تكن واضحة بالنسبة للكوفي ولعله كان ينقل الحكايات التي يرويها القصاصون ليُجمّل بها كتابه.

خامساً يذكر المعصومي أن الفتاتين رُميتا في نهر دجلة وهذا غير صحيح وحتى لو ذكر نهراً في دمشق (108).

سادساً : رفض هذه الحادثة بعض المؤرخين غير المسلمين أمثال (ماجمدار الهندي) و(أليت) ومالا إلى ما ذكره البلاذري وابن خلدون وابن الأثير.

سابعاً : من المعلوم أن من أهم أسباب ضعف المعلومات عن تاريخ فتح السند أن الناس آثروا البقاء في حاضرة الدولة والكتابة عن الخليفة وحاشيته، وتركوا الأسفار الشاقة، فكيف بهم أن يغفلوا عن هذه الحادثة المهمة في دار الخلافة، والتي وقعت أمام أعينهم ليلتقطها كاتب آخر يعيش في أقصي دولة الخلافة!

وخلاصة القول إن هذه القصة من تأليف خيال المؤلف لإدخال عنصر التشويق وهذا ما ابتُلي به الكثير من المؤرخين الأقدمين .

الخاتمـــــة

بعد هذا العرض لرواية اغتيال محمد بن القاسم الثقفي، نصل إلى خاتمة هذا البحث، والتي تضمنت أهم النتائج التي توصل إليها الباحث ونجملها فيما يلي:

أولاً : إن بلاد السند عُرفت بأسماء عديدة، فكلما غزتها جماعة أطلقت عليها اسماً، وعندما دخلها المسلمون كانت تُعرفُ ببلاد السند، فظلّت معروفةً به إلى يومنا هذا. كما أن حدودها كانت تختلف ضيقاً واتساعاً وفق المساحة التي تسيطر عليها السلطة الحاكمة في كل حقبة.

ثانياً :تُعدُّ حملات الفتح الإسلامي لبلاد السند في عهد الفاروق أُولى خطوات الفتح الذي أكمله الأمويون في عصر الخليفة الوليد بن عبد الملك، وولاية الحجاج بن يوسف على العراق، وتحت راية محمد بن القاسم الثقفي.

ثالثاً : وردت أقوال متضاربة حول سيرة محمد بن القاسم.

رابعاً : كانت علاقة الحجاج بالخليفة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد قويَّة، ولكنها سيئة مع ولي العهد سليمان بن عبد الملك، بسبب محاولة الحجاج خلعه عن ولاية العهد.

خامساً : انتقم سليمان بن عبد الملك من كل القادة الذين وافقوا الحجاج على خلعه من ولاية العهد وكان منهم محمد بن القاسم.

سادساً : وردت روايات متناقضة عن خبر موت

محمد القاسم، خلاصتها أنه توفي من جراء التعذيب في سجن واسط.

سابعاً : رواية ججنامة حول اغتيال محمد بن القاسم، جاءت كغيرها من الروايات التي أقحمها الكوفي في كتابه من أجل التشويق لقراءته.

التوصيات:

أولاً : تحقيق كتاب فتح السند " ججنامة " الذي يُعدُّ المصدر الأول عن تاريخ المنطقة.

ثانياً : إبراز الوجه الحسن لجهود هذا الفاتح.

ثالثاً : إظهار دور محمد بن القاسم في نشر الإسلام، ورفع الظلم عن المسلمين وغيرهم، وأثر ذلك في دخول عدد من القبائل الهندية في الإسلام.

الإحالات المرجعية:

1. سورة المائدة، الآية 8.
2. محمد ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها، المكتبة الإسلامية، عمان، الطبعة الثالثة، 1406هـ، جـ4، حديث رقم (1802).
3. أبو الفداء الحافظ بن كثير: البداية والنهاية، دار الحديث، القاهرة، 1414هـ/1993م، جـ9، ص95.
4. على بن حامد الكوفي:فتح السند، الطبعة الأولي، دار الفكر، بيروت، 1412هـ/1992م، ص12.
5. المصدر السابق نفسه، ص 9، وسماه (فتح نامه) فى ص 12.
6. فتح السند: ترجمة ن . أ . بلوش . الطبعة الأولي ، دار طلاس للدراسات والترجمة ، إسلام أباد ، 1991م، ص213.
7. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت، 1407هـ، جـ7، ص340.
8. الكوفي:فتح السند، مصدر سابق، ص 123،124.
9. H.T.LAMBRICK SIND AGEN-ERAL INTRODUCTION, HYDERA-BAD SIND, 1975 VOL 1 P.
10. الآريون:من العناصر التي غزت الهِنْد قبل الميلاد واُختلف حول أصلها، فقيل أنهم من أصل حامي وقيل إيرانيون، وأغلب الأدلة ترجعها إلى العراق وفارس، يُنظر أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد القرماني:كتاب الدول وآثار الأُول في التاريخ، عالم الكتب، بيروت، 1282هـ، ص492.
11. LAMBRICK: P. 1
12. عبد الله مبشر الطرازي:موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب في عهد العرب، عالم المعرفة، جدة، الطبعة الأولى، 1403هـ/1983م، جـ1، ص51.
13. مفازة:صحراء واسعة مخيفة كانت تقطنها العصابات.
14. اليَحْرَين:هي المعروفة الآن بالإحساء في

المملكة العربية السعودية.

15.الكوفي: فتح السند، مصدر سابق، ص72.

16.أحمد بن علي بن محمد الكناني بن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1412هـ، 1992م، جـ2، ص30.

17.الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، جـ5، ص174.

18.المصدر السابق نفسه، جـ5، ص65.

19.القِيقَان:من بلاد طوران بالِسنْد، يُنظر شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي: معجم البلدان، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1417هـ / 1997م.جـ7، ص108.

20.الكوفي: فتح السند، مصدر سابق، ص77.

21.المصدر السابق نفسه، ص77.

22.خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ/1995م، ص127.

23. المصدر السابق نفسه، ص126.

24.الميد:من القبائل المنتشرة على سواحل الِسنْد وصحرائها، كانوا يقومون بالقرصنة البحرية، وكانوا السبب المباشر في حملة الحجاج على الِسنْد، إبراهيم بن محمد بن إسحاق الاصطخري:المسالك والممالك، القاهرة، 1381هـ، ص422.

25.ابن خياط: تاريخ خليفة، مصدر سابق، ص245.

26.العلافيون:هما محمد ومعاوية أبناء الحارث العلافين تغلبا على الِسنْد عشر سنوات وقتلا والي الِسنْد سعيد ابن أسلم الكلابي سنة 75هـ/694م، الكوفي: فتح السند، مصدر سابق، ص85.

27.المصدر السابق نفسه، ص85.

28.القاضي أبو المعالي أطهر المباركبوري:رجال الِسنْد والهِنْد إلى القرن السابع، دار الأنصار، القاهرة، الطبعة الأولى، 1398هـ، ص414-416.

29.خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ/1995م، ص174.

30.عبد الحي فخر الدين الحسني الندوي: نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، 1382هـ/ 1962، ص138.

31.جزيرة الياقوت:هي جزيرة سيلان الواقعة جنوب القارة الهِنْدية، عرفها العرب قبل الإسلام بإنتاج الياقوت، يُنظر حدود العالم من المشرق إلى المغرب: مؤلف مجهول، تحقيق يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1419هـ، 1999م، ص96.

32.أحمد بن يحيى البلاذري: البلدان فتوحها وأحكامها، الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت، 1412هـ، ص479.

33.المصدر السابق نفسه، ص479.

34.الكوفي: فتح السند، مصدر سابق، ص93.

35.شِيرَاز:قصبة بلاد فارس، تولى عمارتها محمد بن القاسم وفيها كانت أولى الأعمال التي تولاها. يُنظر الحموي: معجم البلدان، مصدر سابق، جـ5، ص169.

36.السواد:الخضرة والزروع والأشجار، والمراد هنا البساتين المحيطة بالدَيْبُل، المصدر السابق نفسه،جـ5،ص85.

37.نيرون Niron:في موقع مدينة حيدر أباد الحالية، الأصطخري: المسالك والممالك، مصدر سابق، ص77.

38.البلاذري:فتوح البلدان، مصدر سابق،

ص481.

39.المصدر السابق نفسه، ص482.

40. الرور Alror: أو راؤر تقع على الضفة الشرقية لنهر السند، وهي الآن قرية صغيرة تقع على بعد خمسة أميال جنوبي شرق مدينة روهري الحالية. Majumdar:The Arab Invasion of India,p49

41.برهمناباد:مدينة عظيمة ذات أسوار عالية، إلى جانبها بنى المسلمون فيما بعد مدينة المنصورة، أبو الريحان محمد ابن أحمد البيروني:تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1403هـ/1983م، ص135.

42.ابن كثير:البداية والنهاية، مصدر سابق، جـ9، ص124.

43.البيلمانBilaman:يبدو أنها قريبة من العاصمة.

44.سرستSarest:مدينة صغيرة قريبة من العاصمة الرورُ، عبد الرحمن بن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1413هـ/1992م، جـ3، ص80.

45.المصدر السابق نفسه: جـ3، ص80.

46.الكيرجمن المدن السِنْدية الكبرى، كان يحكمها أحد أقرباء داهر ملك السِنْد، تقع على حدود كشمير، الكوفي:فتح السند، مصدر سابق، ص223.

47.أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر:تهذيب تاريخ دمشق الكبير، هذبه عبد القادر بدران، بيروت، 1399هـ، جـ4، ص 48.

48.محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم: جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة، ص 268

49.الكوفي: فتح السند، مصدر سابق، ص 94.

50. المصدر السابق نفسه، ص 182.

51.عبد الملك بن هشام: السيرة النبوية، دار الفكر، بيروت، الطبعة ألأولى، 1412هـ/1992م، جـ1، ص114.

52.ابن كثير:البداية والنهاية، مصدر سابق، جـ4، ص 248.

53.ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، مصدر سابق ، ص 268.

54.أي رفاقه وأبناء جيله.

55.عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم الشيباني بن الأثير:الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1399هـ /1979م، جـ4، ص 224.

56.ابن خياط:تاريخ ابن خياط، مصدر سابق ، ص 182.

57.ابن كثير: البداية والنهاية، جـ1، ص199.

58.الكوفي: فتح السند، مصدر سابق ، 294.

59.صادق أحمد جوده:مدينة المنصورة في ظل الدولة الهبارية بالسند، الطبعة الأولى، دار أمية، الرياض ، 1415هـ ، ص13.

60.شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي: المقتضب من كتاب جمهرة النسب، الطبعة الأولى، الدار العربية للموسوعات، بيروت ، 1987، ص163، 164.

61.أبو الفداء إسماعيل بن كثير: تفسير القرآن العظيم، الطبعة الخامسة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ، 1416هـ/1996، جـ4، ص 29.

62.سورة الزخرف ، آية 31.

63.انظر حماد بن حامد السالمي: قبيلة ثقيف حياتها وفنونها وألعابها، الطبعة الأولى، دار أمية، الرياض ، 1410هـ، ص13.

64.أبو سعيد عبد الكريم بني محمد بن منصور التيمي السمعاني: الأنساب، الطبعة الأولى، دار الجنان ، بيروت ، 1408هـ/1988م، جـ1 ص 508-510.

65.إبراهيم محمد الزبير:المنتخب في ذكر أنساب العرب، الطبعة الثانية، 1985م، ص 383.

66.سورة النجم، آية 51.

67.ابن هشام:السيرة النبوية مصدر سابق ، جـ1 ، ص 32-33.

68.جواد علي:تاريخ العرب قبل الإسلام، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت، 1976، جـ1، ص 326.

69.الحموي: المقتضب، مصدر سابق، جـ5، ص 243.

70.ابن كثير:البداية والنهاية، مصدر سابق، جـ9، ص 125.

71. لعل هذا راجع إلى كونه معلم الصبيان - المهنة المحتقرة عند العرب آنذاك – انظر القزوينى ، ص 99.

72كان اسمه كليباً، انظر ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق ، جـ9، ص 127.

73. المصدر سابق نفسه، جـ 9، ص9.

74. ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، جـ1 ، ص 199. وعند الترمذي مائه ألف وعشرين ألف مائه، تحفه الأحوذي، جـ7، ص 469.

75.محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء، الطبعة الحادية عشر، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1417هـ/ 1996م، جـ 4 ، ص 343.

76.ابن كثير:البداية والنهاية، مصدر سابق، جـ 9 ، ص 24 .

77.- المسعودي:مرجع سابق، جـ2 ، ص 92.

78.أبو عثمان عمرو بن عمرو الجاحظ :البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1936م، جـ1،ص 237

79.أحمد بن محمد ابن عبد ربه: العقد الفريد، القاهرة، الطبعة الثانية، 1367هـ/1948م، جـ2، ص239.

80.ابن خلدون:العبر، مصدر سابق، جـ3 ، ص 82.

81. الطبري:تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، جـ7، ص 348 – 354.

82.ابن عبد ربه:العقد الفريد، مرجع سابق، ج 3 ، ص 10.

83.هو أبو العلاء بن دينار الثقفي مولي الحجاج وكاتبه ، استخلفه الحجاج عند موته علي أموال الخراج واقره الوليد، عزله سليمان سنة 96هـ فأمره يزيد علي افريقية، فقتله الخوارج سنة 102. انظر الذهبي: أعلام النبلاء، مصدر سابق، جـ4 ، ص 593-594.

84.الجاحظ:البيان والتبيين، مرجع سابق، جـ1، ص 210،211.

85.هو يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ولي المشرق بعد أبيه ، عذبه الحجاج وولي البصرة لسليمان بن عبد الملك، كان الحجاج مزوجاً بأخته، غلب علي البصرة في خلافة يزيد بن عبد الملك

وتسمي بالقحطاني ، فحاربه مسلمة بن عبد الملك وقتله سنة 102 هـ. يُنظر الذهبي: أعلام النبلاء ، مصدر سابق ، جـ4 ، ص 503 – 306.

86. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، جـ 3، ص160.

87. جاء عند الطبري عن الهلوات الكلبي قال : كنا بالهند مع محمد بن القاسم فقتل الله داهراً، وجاءنا كتاب من الحجاج أن اخلعوا سليمان ، مصدر سابق، جـ7، ص 400.

88.المصدر السابق نفسه، جـ7، ص 407 ، وقد ولي يزيد بن المهلب علي العراق وأمره بنكبة آل الحجاج فوليَ علي ذلك عبد الملك بن المهلب، ابن خلدون:العبر، مصدر سابق ، جـ3، 82.

89.البلاذري: فتوح البلدان، مصدر سابق ، ص 483.

90.خيل السكاسك هو خيل أمير السند يزيد الذي ينتمي إلى قبيلة السكاسك من كندة، ابن حزم:جمهرة أنساب العرب، مصدر سابق، ص 432.

91.المزوني ، أراد بها يزيد بن المهلب، انظر البلاذري: فتوح البلدان، مصدر سابق ، ص 484.

92.المصدر السابق نفسه، ص 484.

93.أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن واضح اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، الطبعة السادسة، دار صادر، بيروت، 1415هـ/1995م، جـ2، ص 294.

94.البلاذري: فتوح البلدان، مصدر سابق ص 482، وهذا لا تقره الشريعة الإسلامية.

95.ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق ، جـ2، ص 222.

96. أمثال قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم ، ويوسف بن عمر الثقفي والحكم بن أيوب الثقفي ، انظر اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مصدر سابق ، جـ2، ص 294 ، 295.

97.- جمهرة أنساب العرب، مصدر سابق ، ص 268.

98. محمد غزان أو عزان الكلبي، الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق ، جـ8، ص 151.

99. المصدر السابق نفسه ، جـ8، ص 151،152.

100. المرزباني:معجم الشعراء ، تحقيق عبد الستار احمد فراج، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، 1379هـ/ 1960م، ص 343 ، 344.

101. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مصدر سابق ، جـ2، ص 296.

102. البلاذري: فتوح البلدان، مصدر سابق، ص 484.

103. الكوفي: فتح السند، مصدر سابق، ص 236.

104. المصدر السابق نفسه، ص178.

105. المصدر السابق نفسه، ص197.

106.المصدر السابق نفسه، 213.

107. المصدر السابق نفسه، ص 178 - 219.

108. فوزي محمد عبده ساعاتي: انتشار الإسلام في بلاد السند والبنجاب حتى نهاية العصر الأموي 15-132هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1406هـ، ص 139.

109.المرجع السابق نفسه ، ص 140.